



صور من تداعيات المجاعات والأوبئة على الوضع الاجتماعي بالمغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر

The Repercussions of Famines and Epidemics on the Social Situation in Morocco
during the 17th and 18th Centuries

محمد العمراني (*)

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب

mohamedelamrani73@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2020/12/13 تاريخ القبول: 2021/03/11 تاريخ النشر: 2021/04/30

الملخص:

عرف المغرب سلسلة من المجاعات والأوبئة الرهيبة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت لها آثار وخيمة على حياة الناس الاجتماعية؛ فقد أودت بحياة عشرات الآلاف من المغاربة، وأرغمت أعداداً مماثلة من مواطنهم على مغادرة بلادهم إلى مناطق آمنة للنجاة بأرواحهم من الهلاك. كما ترتب عنها انتشار ظاهرة اللصوصية، وسيادة أعمال العنف والسطو على ديار الناس وممتلكاتهم، وترويع التجار والمسافرين بقطع السبل عليهم ونهب أموالهم. وبهذه المظاهر المأساوية أسهمت مجاعات الفترة المذكورة وأوبئتها في اختلال الأوضاع الاجتماعية والديموغرافية بسائر البوادي والحوضر المغربية، وأثرت في نفسية المغاربة وطريقة تفكيرهم، وفي مواقفهم الذهنية من هذه الكوارث الطبيعية؛ فقد ولدت لدى كثير منهم شعوراً حاداً بالذنب خيال واقع بلادهم المتأزم، فعبروا عن رفضهم له وتذمرهم منه، وبلغت حدة تذمرهم من هذا الواقع المتأزم متنهاها، فلم يعودوا قادرين على تلقي المزيد من المصائب والويلات، وأصبح لديهم استعداد ذهني لقبول كل الحلول الممكنة لتجاوز واقعهم المعيش، فكان انحياسهم إلى الأولياء واعتقادهم في كراماتهم إحدى الحلول التي اعتبروها بديلة وناجعة للتخلص من هذا الواقع المخجل. وأمام هذه الأوضاع المزرية سارع المخزن العلوي إلى اتخاذ إجراءات اجتماعية للتخفيف من وقع الكوارث الطبيعية المذكورة على رقاب الناس.

الكلمات الدالة:

الجفاف؛ المجاعة؛ الطاعون؛ اللصوصية؛ المغرب؛ العلويون.

(*) المؤلف المرسل: محمد العمراني mohamedelamrani73@yahoo.fr



Abstract:

This article aims to shed light on the devastating influence of the famines and epidemics on Moroccan social life in the 17th and 18th centuries. Morocco witnessed a series of terrible famines and epidemics during the seventeenth and eighteenth centuries, which had disastrous effects on people's social life. It took the lives of tens of thousands of Moroccans and forced a huge number of people to leave their countries to safe areas to save their lives from perdition. Those famines and epidemics led to the spread of the phenomenon of banditry, the prevalence of acts of violence and robbery over people's homes and properties, and intimidation of merchants and travellers by cutting off their tracks and plundering their money. They contributed to the disruption of social and demographic conditions in both the countryside and cities, affecting the psyche of Moroccans, their way of thinking, and their mental attitudes towards these natural disasters. Many Moroccans showed a sharp sense of guilt about the crisis in their country, so they rejected and complained about it. They were tired of it to the extent that they became mentally ready to accept all possible solutions to overcome their miserable reality. To seek a solace, comfort and protection, they resorted to the saints. They believed that the divine powers of the saints could be an alternative and effective solution to get rid of their shameful reality. Faced with these deplorable conditions, the Alawi Makhzan took urgent social measures to alleviate the impacts of those natural disasters on people's lives.

Key Words:

Drought, Famine, Plague, Banditry, Morocco, Alawites.

كان للانقسامات السياسية والنزاعات العسكرية والآفات الطبيعية التي شهدتها مرحلة ما بعد السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي وقع شديد على حياة الناس الاجتماعية، وعلى سلوكياتهم الفكرية، ومواقفهم الذهنية حيال واقع بلادهم المتأزم؛ ذلك الواقع الذي خفّت وطأته، وانفجرت أزمته، مع بزوغ حركة العلويين بالجنوب، وتمكنها بعد حروب شديدة مع زعامات محلية عديدة من تهديد المغرب وتوحيده تحت رايتها، بقيادة السلطان مولاي الرشيد بن الشريف العلوي، الذي «أحيا الله به نِعَم الغرب بعد الانعدام، لطلوع شُموسه، على حين تغير من وجه الدهر وعُيُوسه، فجاء المغرب على فترةٍ من مُلكه، وأنقذه الله به من هُلكه»¹.

سوف لن نتطرق في هذه المقالة إلى تلك الانقسامات السياسية ولا إلى تلك المواجهات العسكرية التي دارت بين الأطراف المتنازعة، فقد تقدم لنا الكلام عن ذلك في مؤلف خاص²،



وإنما سنقتصر هنا على إبراز دور الآفات الطبيعية في تأزم الأوضاع الاجتماعية بالمغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كآفات القحط والجفاف والغلاء، التي كانت وبالأعلى على المغاربة أجمعين لما خلفته من مجاعات وأوبئة أودت بحياة كثير من الناس. فخلال مرحلة ضعف الدولة السعدية وانهيارها انقطعت السبل وفشت المجاعات بين الناس حتى «أكل بعضهم بعضاً من شدة الجوع، وكثرة الهرج بين القبائل، حتى فني الكثير من قبائل العرب، ودخل الكثير من المستضعفين والنساء والولدان لبلاد النصارى من عند أنفسهم، وبسبب غيرهم من الحنّاشين³ يقودونهم بلا كلفة ويبيعونهم بالجماط⁴ من كثرة الجوع، حتى إن النصارى كانوا يعملون الأسارى من المسلمين صابورة⁵ في السفن يعدلون بها مشها، لكثرة من دخل منهم لبلاد النصارى»⁶.

من أخطر الأزمات الطبيعية التي ضربت المغرب زمن المرحلة المذكورة أزمة رهيبة امتدت بصورة متقلبة حوالي أربع سنوات (1058-1062هـ/1648-1652م)، وكانت لها آثار كارثية على ديموغرافية المغرب وأوضاعه الاجتماعية. فقد ورد في تقييد يتعلق بمدينة آسفي وضواحيها في أواخر الدولة السعدية أنه «في عام ثمانية وخمسين وألف (1058هـ/1648م) كان المرض قاسياً، وكثرت الأموات حتى كان من العشرة يبقى واحد، وفي البوادي لا يُحصى ولا يُعدّ عدد الأموات...، وفي ذي القعدة من 1060هـ (نوفمبر 1650م) بلغت الأقوات مبالغاً، ولم ينزل المطر، وارتفعت الأسعار، وغلت الأقوات غلاء غير معهود...، وفي سنة 1062هـ (1652م) لم ينزل الأمر يزداد شدة...، وارتفعت أسعار الأقوات ارتفاعاً بليغاً...، وفسدت البلاد، وخربت القرى جميعاً، وفّر الناس للحوز ومراكش وسوس الأقصى، وجعلوا يموتون جوعاً، واشتغل أهل البادية بنهب القرى. وفي سنة 1062هـ... تفاحش الموت في الناس جوعاً، وعجز الناس عن الدفن... وبقي الميت حتى تأكله الكلاب...، واعتمد الناس على أكل «الكوهة»⁷ و«أيزني»⁸ حتى صار لا يوجد في الأسواق إلا هو، وكان مأكلم سنيتين...، وخلت البلاد، وضاعت الأعراب، وخلت القرى بأسرها، ولم يبق فيها من فيه الروح أصلاً...، حتى صار الرجل يهرب من أولاده»⁹.

وتلت هذه الآفة الطبيعية المهلكة مسغبة شديدة أخرى عمّت معظم مناطق المغرب، ودامت ثلاث سنوات كاملة؛ من سنة 1071 إلى 1073هـ/1661-1663م، عانى خلالها المغاربة آلام الجوع وكثرة الموت بسبب غلاء المعيشة وتفاقم الأوبئة الفتاكة. فقد ذكر المؤلف عبد الله بن عمر العياشي أن الناس في مدينة فاس اضطروا خلال هذه المسغبة إلى أكل الموتى والجيف، لاسيما بوادي بني يزغة، حيث «أعان الجوع في أهله الحرص حتى أن من كان عنده من أهله



زرع تركه للبيع وأكل الربيع»¹⁰، وإلى هذا المعنى ذهب كل من القادري والضعيف والناصري وابن زيدان عند تطرقهم لحوادث هذه السنوات الثلاث¹¹. وبمنطقة الرشيدية اضطر شيخ الزاوية العياشية عبد الجبار بن أبي بكر العياشي أيام هذه المجاعة إلى إطعام أصحابه معجون ثمر العرعار، وأعشاب مطبوخة بـ«الذرو» والملح¹²، كما اشتد الجوع بأهلها «حتى طحنهم طحن الرحاء لدقيقها، وخلي كثيراً من قراها ودشورها»¹³، وكثر الموت هنالك حتى عجز الناس أحياناً عن دفن موتاهم¹⁴.

ولن نجد أبلغ ما يعبر عن حدة وقع مجاعة عام 1071هـ/1661م¹⁵ على رقاب الناس من هذه القصيدة الشعرية التي أوردها عبد الله بن عمر العياشي في مؤلفه «الإحياء والانتعاش»، حيث يقول فيها صاحبها:

يا مَنْ عَدَّ الغرب عام الجوع قد غَرَبَا	لا تنكرنَّ على مَنْ جُوعُهُ غَلَبَا
إن حَدَثوكَ أحاديث إذا سُمِعَتْ	يظل سامعُها يقول: وَاعَجَبَا!
لا تسترب ¹⁶ ، لا، ولا تستغربنَّ فما	أشدَّ ما كتموا من أمره عَجَبَا
من كل داهيةٍ تدهي العقول بها	وشدة قطعت أربابه إِرَبَا
أشدد بعامٍ يكاد الزرع فيه يكون	كالدَّواء فيباع وزنه ذهبَا
ما أعظم الأمر إذ كادت تعود فيه	التمرُّ تَبْرًا وعاد حشفه رُطَبَا
فمضغة اللحم تكسو المجد والحَسَبَا	كما مذاقة حَيْسٍ ¹⁷ تُثَبِّتُ النَّسَبَا
فثمن الدُّرِّ دون ثمن الدَّرة	فيه وبالعز والفضل الحَسَا ذهبَا
هي حقائق لا شك قد انقلبَتْ	فانخفض الرفْعُ والخفضُ قَدِ انتصبَا
لله دُنْيا فما أكثر ما وعظَتْ	ذا اللَّبِّ فازداد منها لبُّه هَرَبَا
وذو الحماقة ما أكثر ما سَخَرَتْ	بِلَبِّهِ وإلها يكثر الطَّرَبَا ¹⁸ .

كما أفادنا بمعلومات دقيقة عن ارتفاع أسعار المواد الغذائية بشكل مهول وانعدام وجودها بالمرة في بعض مراحل المسغبة المذكورة، حيث أشار إلى أن الأطعمة «لم تزل...تغلو أسعارها، وترتفع أثمانها، إلى أن بلغت مبلغاً لا يقدر عليها ذوو الغنى والإكثار، فضلاً عن الضعفاء أهل الفاقة والإقتار، حتى وصل بيض الدجاج في زاوية أزغار بيضة بدرهم، وبيع فيها ديك ودجاجة بخمس وثلاثين مَوْزُونَةً...، وفي وقت اشتداده فيها انعدم الدجاج منها بالأصالة حتى لم يُعَد يُرى فيها ديك ولا دجاجة، كما انعدمت وسقطت بالكُلِّية من قريتنا أيضاً، بل قد سقطت منها أيضاً القُطوط، بحيث لا تسمع فيها صياح ديك ولا مواء قط»¹⁹.



وقد ولدت هذه المحن والأهوال لدى كثير من أفراد المجتمع شعوراً حاداً بالذنب تجاه هذا الواقع المخجل الغارق في الأزمات، وعبروا عن رفضهم له، وثاروا على المألوفات، إذ اعتبروا ما حل بهم من الفتن والأهوال والويلات عقاباً إلهياً استحقوه بسبب ابتعادهم عن تعاليم الإسلام، وانكبابهم على ملذات الحياة، وتراخي ولادة أمرهم في أمر الجهاد بل وتعاملهم مع النصراري. وبلغت شدة تدمرهم من هذا الواقع المتأزم منتهاه، فلم يعودوا قادرين على تلقي المزيد من الإهانات والتجاوزات، وأصبح لديهم استعداد ذهني لقبول كل الحلول الممكنة لتجاوز أزماتهم الذاتية.

في خضم هذه الأوضاع المزرية، انتعشت مسألة الولاية الروحية في الأوساط المغربية، كمفهوم ديني مقدس يفرض نفسه بشدة، بديلاً عن السلطة الزمنية التي ظهر للعبان قصورها في ضبط الأمن والاستقرار، وحماية البلاد من التهديدات الخارجية، فتكاثر عدد الأولياء في هذه الفترة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب، حسبما نص عليه غير واحد من العلماء²⁰، وذاع صيتهم في الآفاق، وازدادت هيبتهم في النفوس، باعتبارهم أهل الله المنقذون البلاد والعباد من الظلم والطغيان والانحراف، المالكون وحدهم حق الإصلاح الروحي للنفس البشرية الأمارة بالسوء. وبهذه الصفة سارع الناس إلى تعظيمهم وتبجيلهم بشكل مثير للغاية، وكان من مظاهر هذا التبجيل أن اعتقدوا في كراماتهم، وفي قدرتهم الفوق-طبيعية على تغيير معالم الواقع المألوف اعتقاداً مطلقاً، ولم يكن هذا الاعتقاد سائداً لدى العامة وحسب، وإنما ساد حتى لدى الفئات المثقفة، التي لم يكن يطيب لها الحديث إلا عن مقامات الأولياء وكراماتهم²¹.

وظل المغرب على ما هو عليه من التشرذم والتأزم والانحطاط إلى أن انطلق الأشراف العلويون من تافيلالت في إطار حركة سياسية تهدف إلى إعادة ترتيب الأوضاع الداخلية، وتوحيد أقاليمه تحت سلطتهم، «تدارك الله بهم رَمَق الإسلام في هذا القطر المغربي، بعد أن كان فَنِي أهله أو كادوا، ومزقت أشلاءهم الجوع والفتن وبادوا، أقفرت بلدان العرب من أهلها، واستوحشت من قبائلها ورجالها، وصارت أطلالهم خاوية، تندبها الذئاب العاوية»²²، فدشنوا عهداً جديداً من تاريخ المغرب الحديث على أنقاض الدولة السعدية البائدة.

فقد استطاع السلطان مولاي الرشيد بن الشريف، بالرغم من قصر مدة حكمه التي لم تتجاوز سبع سنوات، أن يوحد المغرب كله، ويفرض الأمن والاستقرار في سائر الجهات، إذ بفضل شدة حزمه وعزمه، ويؤمن سيرته وسياسته، ونفوذ كلمته وسلطته، «هدنت البلاد، واستعفت العباد، وانقطع النهب والقتل في الطرق وأمنت، فرخص القمح»²³، و«كثر الخصب



والرخاء أيام ولايته»²⁴، ورخصت الأسعار عموماً، و«بدأ الازدهار في الشيوخ في جميع الأماكن»²⁵، حتى «كانت أيامه أيام سُكونٍ ودَعَةٍ ورخاءٍ عظيمٍ»²⁶، على حد تعبير الإفرائي، و«أياماً مباركة على ضَعْفَةِ الناس وسائر المسلمين»²⁷، حسب شهادة القادري.

الجدير بالذكر أن مثل هذه العبارات العامة قد اعتاد الإخباريون المغاربة على ترديدها في حولياتهم وتواريخهم عند حديثهم عن عهد السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف، بحيث يبدو من خلال قراءتنا لمعظم المصادر التاريخية المغربية، أن أهم ما ميّز العهد الإسماعيلي على الصعيد الاجتماعي هو عموم الرخاء والأمن والاستقرار في أرجاء البلاد، إذ «أدرك الهناء في أيامه كثير من الضعفاء والأيتام، وقام فيه كثيرٌ من الناس بالعلم والدين أتمَّ قيام»²⁸. كما أنه «لم يبق بأرض المغرب سارقٌ ولا قاطع طريق، ومَن ظهر عليه شيء من ذلك وفَرَ في القبائل قُبُض عليه بكل قبيلة مَرَّ عليها أو قرية ظهر فيها»²⁹. ومن باب الحذر والحيلة أن «كلَّ مَنْ بات مجهول الحال بحلة أو قرية يُتَقَفَّ بها إلى أن تتبين براءته، وإن تركوه فإنهم يؤاخذون به، ويؤدون ما سرقه واقتطفه من الجرائم كالقتل وغيره»³⁰. وهذا «أمر لم يكن بالمغرب قبله ولا بعده»³¹.

ومن تجليات سيادة الأمن في هذا العهد أن «كانت المرأة والدِّمِّي يخرجان من وجدة إلى أقصى السوس فلا يسألهما أحد من أين جاء ولا أين يسيران»³². ومن ذلك أنه «لم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون إليه ويتمنَّعون به في أيامه على طولها»³³.

ويبدو أن السلطان مولاي إسماعيل كان حازماً في ضبط الأمن بسائر البلاد ضبطاً محكماً، حريصاً على استئصال مواطن الفساد والانحراف بكل ما أوتي من سلطة ونفوذ، وهذا ما يفسر وجود نحو ثلاثين ألفاً من أصحاب الجرائم في سجنونه، كالسارق والقاطع والقاتل³⁴، كانوا يظلون في «العمل مع أسرى الكفار، ويبيتون في السجون والأهراء تحت الأرض، ومَن مات منهم دُفن في البناء، حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض»³⁵.

لكن إذا كانت هذه الإجراءات الزجرية قد أتت أكلها على مستوى تحقيق الأمن وإيقاف نزيف الفوضى الاجتماعية، فإن الشطط في استعمال السلطة من قبل بعض عمال السلطان كان يؤدي إلى حدوث تدمر واضح في بعض الأوساط الاجتماعية، كما حدث لأصحاب الثروات بمدينة فاس عام 1115هـ/1703م، عندما وظَّف عليهم الأمير مولاي الحفيد بن إسماعيل «وظائف لا يقدر على حملها الحجر الصلد ولا الحديد»³⁶، وما حصل لهم عام 1133هـ/1721م، عندما «غضب السلطان... عليهم غضباً شديداً...، وكلفهم بإعطاء أربعين قنطاراً من المال الناض»³⁷، وبعث حمدون الروسي وأخاه أبا علي الروسي لقبضها منهم، فأثقل أبو علي³⁸



كاهلهم بالمغارم والوظائف، فجعلوا يدفعون ما عندهم، حتى ضاق الأمر عليهم غاية الضيق، وفرّوا إلى المدن الأخرى، وبقيت فاس خالية من أهل اليسار³⁹. ومن جهة أخرى، لم ير أبو القاسم الزياني في عهد السلطان مولاي إسماعيل سوى اليمن والبركة، بحيث يذكر أن أيّامه كانت «غزيرة الأمطار، كثيرة البركة في الحراثة والفلاحة والتجارة والأمن والرخاء والخصب، لم يقع غلاء طول أيامه إلا مرة واحدة، بلغ القمح فيها ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق، ورأس الضأن ثلاث أواق، ورأس البقر من المثقالين إلى المثقال، والسمن والعسل رطلين بموزونة، والزيت أربعة أرطال بموزونة»⁴⁰.

وبالغ الإفراحي بدوره في الثناء على المآثر الاجتماعية للدولة الإسماعيلية، حينما شهد بكون «هذه الدولة السعيدة لم ير الرّاؤون ولا سمع السامعون مثلاً، لما اشتملت عليه من المفارح، التي يَكُلُّ في تعدادها الأول والآخر، لقد ظهر فيها من الخيرات ما لا يُحصى، ورأى الناس من الأمن والرخاء والهناء ما لم يخطر لأحد ببال، وكل ذلك مما شاع وذاع، وامتألت منه الأسما»⁴¹.

بيد أن هذا الرخاء العام -إن صَحَّ- لا يعني عدم حدوث غلاء ومجاعات وأوبئة خلال العهد المذكور. ففي عام 1084هـ/1674م، وقع غلاء مفرط «وبلغ القمح أربعين أوقية للوسق...، وبلغ الصابون أربع موزونات للرطل ولم يظهر، والسمن ثلاث أواق، والزيت كذلك، واللحم لم يؤكل إلا البقري، ولم يذبح الناس في العيد أضحية وإنما كان عيدهم كعيد الفطر، والنادر ذبح عاجلاً أو نحوه، وبلغ ثمن الكباش عشرة مثاقيل فما دون»⁴².

وقد تكرر الأمر سنة 1088هـ/1677م عندما «غلا ثمن الضحايا، وقلّ لحمها حتى بلغت الشاة ثمناً لم يعهد أصلاً، وعدمت الغنم، وبقي الكثير من غير أضحية»⁴³. وتلا هذا الغلاء طاعون مميت في سنة 1089هـ/1678م، نعتة صاحب «زهر الأكم» بـ«الوباء العظيم»⁴⁴، عندما «ظهر بتطاون إلى أن بلغ الموتى بها خمسين نفساً في اليوم الواحد، وظهر بالقصر إلى أن بلغ موتاهم مائة وخمسين في اليوم الواحد...، وظهر الطاعون بفاس الجديد المرينية، فصُلّي بها ليلة المولد على عشرين، وكثر بها، وخلت مدرستها، وسُدَّتْ...، وكثر بالقرى المجاورة لها... حتى خليت، فوجّه السلطان... عبيده إلى إحراق تلك القرى التي أخلاها الطاعون، فأحرقوها عن آخرها وخرّبوها وتركوها خراباً...، وأمر عبيده أن لا يتركوا من يريد المرور بفاس إلى مكناسة الزيتون، فكانوا يحرسون الطرق ليلاً ونهاراً، ومن لم يسعفهم في الرجوع عن المسير إلى مكناسة قتلوه، وظهر الطاعون بفاس، وكثر إلى أن بلغ الموتى في اليوم الواحد من أربع مائة إلى ثمان مائة



إلى ألف وأزيد...، ثم ظهر... في مكناسة الزيتون دار المملك إلى أن بلغ الموتى بها ثلاثمائة. إلى أن ضعف فبلغ الموتى في اليوم الواحد خمسين، وظهر بمراكش، فبلغ الموتى بها ألفين في اليوم الواحد وأكثر، ومات بمدرغة وتافيلالت وتوات وسائر بلاد الصحراء ما لا يُحصى»⁴⁵.

وقد بالغ الأسير الفرنسي جيرمان مويط كثيراً في تضخيم عدد ضحايا هذا الطاعون الفتاك، حيث قدر عددهم بما ينيف على أربعة ملايين نفس⁴⁶. وهو عدد يتجاوز في حقيقة الأمر مجموع سكان المغرب في ذلك الوقت. وتفاقم خطر الطاعون في السنة التالية 1090هـ/1679م، وماتت به أقوام كثيرة من عامة الناس، وطائفة مهمة من أهل العلم والدين⁴⁷، منهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه العلامة الكبير، الشيخ الصوفي الأديب النحرير، الرحالة الجوال، صاحب الرحلة المشهورة المسماة «ماء الموائد»، أبو سالم العياشي، الذي «لم يمت حتى لم يبق من يُصلي معه الجمعة، فكانت بزوايته نحو سبعين رجلاً، فبقي منهم تسعة»⁴⁸.

وشهدت سنة 1091هـ/1680م ارتفاعاً مهولاً في الأسعار، بسبب انحباس المطر، فبلغ القمح نحو الستين أوقية للوسق، وصلى الناس صلاة الاستسقاء مراراً، بلغت تسع مرات بفاس وحدها، تقدم لإمامتها في المرة الأخيرة العلامة القاضي محمد العربي بردلة، فصلى بالناس بباب الحمراء، «وضَّجَّ الناس بالبكاء والدعاء، متوسلين لله بأهل البيت الشريف»⁴⁹، فما رجعوا من الصلاة حتى أتى الله بالفرج، ف«نزل المطر الغزير المقنع الكثير، فانحطت الأسعار، ونزل القمح إلى خمس وثلاثين أوقية للوسق»⁵⁰، و«اطمأنت قلوب الناس وفرحوا»⁵¹ بإغاثة الله ورحمته. والأمر نفسه شهدته سنة 1094هـ/1683م، عندما «ارتفعت الأسعار، وبلغ القمح درهماً ونصفاً للصاع، واشتد الأمر من رجب إلى ذي القعدة»⁵². وتكررت خلالها صلاة الاستسقاء أكثر من مرة، فنزل في آخر هذه السنة وأول السنة بعدها مطر كثير، ف«مات خلق كثير في وادي ورغة، كانوا قريباً منه، وحمل وأخذهم فجأة، وقتل نحو ستة آلاف نفس»⁵³. وكذلك سنة 1127هـ/1715م عندما عرفت البلاد مجاعة رهيبة و«وقع (خلالها) غلاء كثير، وارتفعت الأسعار، وعُطلت الحرف، وكثر الموت في سائر الأقطار، وفتح السلطان خزائن القمح وفرقه في سائر القرى والمدن والأمصار...، وكاد أن تنقطع الطرقات، لما حصل من الجوع والآفات»⁵⁴.

وفي أواخر هذا العهد عرفت البلاد سلسلة من السنوات العجاف دامت أربع سنوات من سنة 1133 إلى سنة 1136هـ (1721-1724م)، انعكست آثارها بشكل خطير على الحياة



الاجتماعية للسكان، لكن المصادر التاريخية تغفلت عن ذكر هذه المجاعة الرهيبة، اللهم إلا بعض المصادر، التي أشارت إشارة عابرة إلى ارتفاع أسعار بعض المواد الغذائية⁵⁵.

ويعتقد بعض الباحثين أن هذا التغافل قد يكون راجعاً إلى تلك الصورة المضخمة التي ألصقت بالسلطان مولاي إسماعيل بعد وفاته، ليس بالنسبة لقوته وبطشه فحسب، وإنما أيضاً بالنسبة لعمره الذي أصبحت الذاكرة الجماعية تتجه نحو استحضاره كعهد ذهبي للأمن والرخاء، يتحسر المُستُون عليه في غمرة القلاقل المهولة التي اندلعت بين أولاده حول الحكم⁵⁶، حتى أفضى ذلك ببعض الصالحين إلى التصريح بأن «وجود مولانا إسماعيل أمان للمغرب من الغلاء، وسبب في الخصب والرخاء»⁵⁷، وحمل بعضهم على القول بأن «وجوده عصمة من طوفان الفتن، وملجأ من ياجوج المحن»⁵⁸.

غير أن القادري وابن الحاج السلي خرجا عن دائرة الصمت وأفادانا بإشارات قيّمة عن هذه المجاعة بفاس. فقد ذكر القادري أن الجوع اشتد بالناس بفاس عام 1133هـ/1721م إلى درجة أن الجياع كانوا يهبون عجين الخبز في طريقه إلى الفرن، مما دفع الناس إلى وضعه في الصناديق خوفاً من النهب، فسمي العام من أجل ذلك بـ«عام الصندوق»، كما سُمي هذا العام كذلك بـ«عام خِيْزُو» لكثرة زرعته في هذه السنة، ثم أشار إلى اشتداد الغلاء، ووقوع موت كثير بين السكان بسبب الجوع وتفشي أمراض مختلفة، ناقلاً لنا صورة ذلك الوضع الديموغرافي المزري كما عاينه بنفسه قائلاً: «حتى لقد رأيتُ بالمارستان بفاس -أمها الله- الذي كانوا يجمعون فيه الأموات يجهزونهم، فتراكم بعضهم على بعض حتى صعدوا من الأرض نحو القامتين كله معمور بالأموات»⁵⁹. ويذكر ابن الحاج السلي أن الناس بفاس جاعوا حتى أكلوا الجيفة والموتى لجدة المجاعة⁶⁰.

ومما لا شك فيه أن المجاعة المذكورة لم تنحصر في فاس وحدها، وإنما عمت جهات عديدة من البلاد، مثل طنجة ومكناس وصفرو وسلا ودكالة وغيرها. ولم تكن الحالة بتلك الجهات أقل سوءاً مما كانت عليه بفاس، ففي بلاد تاسافت بضواحي مراكش على سبيل المثال يورد عبد الله بن إبراهيم التاساقي في مؤلفه «رحلة الوافد» أن سنة 1133هـ/1721م كانت من أشد السنوات وقعاً على الأهالي، إذ «اشتد الهرج بالناس والموت من كثرة المجاعة والمسغبة وغلاء الزرع»⁶¹. واستمرت حدة الغلاء هنالك غاية، «وبلغ سعر الزرع أربعة مثاقيل فضة إلى خمسة لغرارة الجبل...، والفاكية كذلك غالية، والزيت مع الدواب والخضرة كذلك، ومات الناس غاية بمرض مشوب مع ذلك»⁶².



وفي بلاد آيت باعمران بسوس ازداد الوضع تدهوراً في سنة 1134هـ/1722م، بحيث «وقع الجوع بالناس، وانكسر القوم...، وغلا الزرع والفاكهة والدواب، ومات الناس بالجوع والمرض»⁶³.

وفي ضاحية مدينة الجديدة -التي كانت ما تزال حينئذ تحت نير الاحتلال البرتغالي- عانى أهل دكالة كثيراً من ويلات هذه المسغبة، ففي الوقت الذي كانت المواد الغذائية تصل من البرتغال لتموين حامية المدينة، لم يكن الدكاليون يجدون أمامهم من وسيلة يدفعون بها جوعهم سوى التوجه إلى الجديدة للتوسل إلى البرتغاليين من أجل بيعهم أطفالهم ونساءهم ومواشيهم مقابل حفنة من الدقيق أو من القمح. وقد اتخذت حركة الاسترقاق هاته -حسب بعض الدارسين- أبعاداً خطيرة، ذلك أنه «لم يسبق -كما حدث في هذا الوقت- أن اشترى البرتغاليون مثل هذا العدد الكبير من «العبيد» المغاربة»⁶⁴.

ويبدو أن هذه الرواية إن صحت فعلاً فإن الأمر يدعو في الحقيقة إلى إعادة النظر في تلك الصورة المشرفة التي رسمتها الكتابات التاريخية المغربية التقليدية عن العهد الإسماعيلي، كعهد أنموذجي للخصب والرخاء و«الأمن الغذائي»! وفي خضم تلك الظروف العصيبة التي مرت بها البلاد المغربية، اتخذ السلطان مولاي إسماعيل إجراءات اجتماعية ملموسة حيال هذه المجاعة، حيث عمد إلى فتح مخازن القمح وفرقه على الضعفاء والمساكين وذوي العاهات بسائر المملكة، وفرق أموالاً لها بال على جميع الجيوش، وأنته قبائل «البربر» والأعراب فأكرم مثواهم، وأفاض عليهم من نواله ما كفاهم به صولة المجاعة المذكورة، وأنزلهم ببلاد الغرب، وواساهم بالقمح والمال والثياب، فعاشوا وصُلّحت أحوالهم⁶⁵. وهي إجراءات شبيهة بالمهام الاجتماعية التي كانت تضطلع بها الزوايا أيام الشدائد للتخفيف من حدة الجوع⁶⁶.

وكانت للحروب الأهلية التي اندلعت بعد وفاة مولاي إسماعيل آثار وخيمة على الحياة الاجتماعية بالبلاد، لاسيما فيما يرتبط بالوضع الديموغرافي الذي شهد تدهوراً ملحوظاً، ففي كثير من المناسبات يتحدث المؤرخون عن هلاك أعداد كثيرة من السكان من جراء الحروب، فقد وصف القادري فترة ما بعد مولاي إسماعيل بكونها فترة عمّ فيها «قتال عظيم وحروب، وتراكمت فتن في جميع أقطار المغرب، وسفك في الدماء مما لا يحصى أفضت إلى فناء خلائق لا تحصى...، وكاد أن يهلك جميع من في المغرب»⁶⁷، ومثل هذا الوصف ورد عند كل من الريفي⁶⁸، والضعيف⁶⁹، والمشرقي⁷⁰.



وينضاف العامل الطبيعي المتمثل في الجفاف إلى العامل البشري المتجلي في الحروب ليزيد في تعميق هذه المأساة الاجتماعية، فقد اكتسح الجفاف البلاد في سنة 1149هـ/1736م فاضطر الناس إلى تنظيم صلوات الاستسقاء في كل من فاس ومكناس⁷¹، ففي مدينة فاس قَدَّم الناس الفقيه الصوفي حمدون الطاهري الجوطي⁷² لإقامة هذه الصلوات مرات عديدة بمدنيتهم، إلا أن انحباس المطر تواصل على الرغم من ذلك⁷³، «فغلت الأسعار بسبب ذلك...، وقاسى الناس من ذلك الشدائد العظام من انقطاع ظهور اللحم وقلة الإدام، ولم يزل الأمر في شدة وازدياد، وماتت بالضيعة رقاب كثيرة... وفرَّ الناس من المدينة لأجل ذلك كل فرار»⁷⁴.

ورافق هذا الجفاف سيادة أعمال السطو والسلب، التي زادت من تردي الوضع الاجتماعي بهذه المدينة وناحتها، حيث «اختل النظام وشاع الفساد...، وازدادت الفتن وفر الناس»⁷⁵. وقد نقل لنا القادري تفاصيلها بدقة بالغة، فذكر أنه في ذروة تلك الأزمة «كثر الظلم...، وظهرت السُّيَّاب بفاس في الليل، فكانوا يقلعون أبواب الدروب ويدخلون على الناس في ديارهم بالأربعين رجلاً وأكثر بفناراتهم وعُدَّتْهم وآلات حربهم، ويأخذون جميع ما يجدونه فيها من زرع وأثاث وغير ذلك، ويقتلون مَنْ يريدون قتله، ويدخلون أيضاً على الناس في الزرائب داخل المدينة، ويأخذون أيضاً ما يجدونه فيها من بقر وغنم. وكل يوم يقطعون على سُرح المدينة وينهبون جميع ما يجدونه عندهم، ولا يقدر أحد أن يُغيث أحداً أو يدافع عنه لا في ليل ولا في نهار، فأخيفت السبل، وقطعت الطرق جهاراً، وأعلنت الوداية بقطع الطريق، وصار جميع حوزية فاس كلها تقطع الطريق على المارة، كالحجوة وبني راشد وشراقة وأولاد جامع و«البربر» والحيانية، ولا بقي أحد يدخل لفاس ولا يخرج منه»⁷⁶. كما سجل الضعيف الرباطي إشارة مهمة عن تفاقم الوضع الأمني بفاس وأحوازها إبان السنة المذكورة، فخلالها «شرع الودايا في قطع الطرقات ونهب القوافل، وجاءوا للخميس ونهبوا جميع مَنْ كان به، ومن...نحو الألفين...من البغال، وشنوا الغارة على فاس»⁷⁷.

وسيشد الأمر كثيراً على الناس خلال السنة التالية (1150هـ/1737م)، التي عرفت أخطر مجاعة في هذه الفترة، إلى حد أن البعض صار يطلق على هذه الأزمة الغذائية اسم «المسغبة العظيمة»⁷⁸، وذلك لنتائجها الكارثية على الحياة الاجتماعية للسكان، وخصوصاً ساكنة فاس ومكناس، فقد أفادنا الريفي أن عامة الناس في تلك المسغبة «ماتت... بالجوع، وعجزت الناس عن دفن موتاهم، وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابل»⁷⁹. وفي رواية القادري أن عدد مَنْ أُخْصي «مَنْ مات (بفاس) في هذه المسغبة في سنة خمسين، من أولها إلى تمامها، ممن



دَفَنَ أهل المارستان، تسع وثمانون ألفاً (89000) وأضعاف ذلك، دون من دَفَنه غير أهل المارستان»⁸⁰. وهذا الرقم -وإن كان مبالغاً فيه- فإنه يعكس الآثار الوخيمة التي خلفتها هذه المسغبة على الوضع الديموغرافي بالمدينة، فليُعْظَمِ الكارثة خرج معظم أهل فاس من ديارهم فارين بأنفسهم من الجوع إلى تطوان وطنجة والعرائش والقصر الكبير ووزان⁸¹، بينما غادر اليهود مكناس هرباً من المجاعة واتجهوا بحثاً عمّا يقيم أودَّهم إلى دكالة أولاً ثم ضربوا بعيداً نحو الجنوب حتى وصلوا إلى درعة⁸². وكان من مظاهر هذه المسغبة الخطيرة أن انتشرت ظاهرة اللصوصية بشكل واسع في البوادي والمدن على حد سواء، إلى درجة أن الديار «كانت...لا تجد من يسكنها من شدة الخوف والاضطراب»⁸³، وأن أهل اليسار كانوا لا ينامون ليلاً لكثرة اللصوص⁸⁴. بل إن «كل الناس رجعت لصوصاً»⁸⁵، «لا يتعيّشون إلا بالنهب»⁸⁶، على حد تعبير الزباني.

ويصور لنا القادري مرة أخرى حالة الفوضى الاجتماعية العامة التي انتابت فاس خلال هذه المجاعة بقوله: «وانقطعت الطرق بالكلية...، وجعل للصوص يهجمون على الناس في ديارهم ليلاً ويقتلونهم ويستغيثون فلا يغاثون، وبلغ النهب في النهار إلى باب الدور التي بأطراف المدينة، فلا يستطيع أحد أن يخرج من وادي عدوة الأندلس ولا عن باب القصبتين، ولا عن الحفارين من فاس القرويين...، وخلا من السكى نحو الثلثين من فاس بالجوع والفرار عنها، وتخرب أكثر من ذلك من دورها وحوانيئها»⁸⁷. ثم «كثر الخوف بنواحي فاس...، ونهبت القوافل»⁸⁸ هنالك جهاراً.

كما نجد عند ابن الحاج السليبي إشارات لأعمال السطو والنهب بهذه المدينة تنم عن واقع اجتماعي مخجل حطمت فيه المجاعة شروط الأمن والاستقرار، حيث لم تعد فيه لغة تعلو فوق لغة السلاح! فقد اشتد العنف في فاس كثيراً إلى حدٍّ أن «كان اللصوص يأتون ليلاً لديار الناس يهبونها، ومن قام معهم يقتلونه ويأخذون جميع ما وجدوه، فكانوا يأتون لرأس الجنان والمخفية ومصمودة والطالعة والدوح وسوق النخالين وباب السلسلة، وقد جاءوا مرة إلى سوق القيسارية وحصل للناس بسبب ذلك خوف عظيم، وهذا كله والسلطان (محمد ابن عربية) بمكناس، لم يلتفت للناس ولم يعبأ بما ينزل بهم، وحيل بين الناس وبين أجنحتهم بلمطة والمرج وغيره من أحواز المدينة، ولم يبق أحد يذهب لموضعه بالمرج إلا من اتخذ يداً مع السُّبَّاب، ولم يزل الأمر، والعياذ بالله، يشتد. وجاء للصوص من ناحية الفتوح للفندق الذي بقرب مدرسة الوادي وأخذوا منه قافلة كانت عزمت على السفر، فلما اجتمع أهل فاس



وخرجوا إليهم وجدوهم قد ذهبوا بما أخذوه وذلك وسط النهار...، وكثر الخوف بسبب هذا وصار الناس يبيتون في الشوارع التي هي مظنة معيء اللصوص ليلاً. وفي 25 شعبان (1150هـ/18 ديسمبر 1737م) ذهب السُّيَّاب إلى مدرسة الصفارين ليلاً ونهبوا جميع ما كان بها لأنها كانت خلت من أهلها وأغلقت أبوابها. وفي ليلة الأحد 5 شوال (26 يناير 1738م) جاء السُّيَّاب لسوق القيسارية ونهبوا بعض الحوانيت»⁸⁹.

والأمر نفسه بالنسبة إلى مدينة مكناس، حيث ازدادت حدة العنف داخلها وخارجها. فخلال هذه المسغبة نهب «السُّيَّاب» قيسارية مكناس كلها، وشدّدوا التضييق على المدينة من كل جهة⁹⁰، فتعذرت من يومئذ الطريق إليها، وكثر قطع الطرقات بناحيها وبنواحي وادي سبو⁹¹. وفي هذا الصدد يُطلعنا الزباني على بعض الصور الفظيعة لأعمال اللصوصية بمكناس وأحوازها أيام المسغبة المذكورة، فيذكر أن السلطان سيدي محمد ابن عربية بعدما «فرّق على العبيد ما عنده من المال، فلم يقنعهم ذلك، أطلق أيدي النهب في المسلمين، واشتغل بنهب الزرع من دُور أهل مكناسة، والبحث عنه في الأهريّة والمطامير، ومن دُكر له أن عنده زرعاً يقبضه إلى أن يُظهر ما عنده، وكل من أتى بزرع من أهل البادية يُؤخذ له، وكثر الهرج والفتنة، وفرّ الناس من المدينة، وامتدت أيدي النهب من خارجها، فانقطعت السبل»⁹².

وما أن بدأت هذه الأزمة الغذائية تنجلي بعد استيراد الحبوب من أوروبا، وعودة ركب الحاج الفاسي من طرابلس مُحمّلاً بكمية كبيرة من الحبوب⁹³، حتى ضرب المغرب طاعون فتاك عام 1155هـ/1742م، حصده عشرات الآلاف من الأرواح البشرية بكل من فاس ومكناس وزرهون ومشعر الرملة ووزان والقصر الكبير وطنجة وتطوان وسلا والرباط وأكادير⁹⁴. وحسب الضعيف الرباطي فإن هذا الطاعون «عم...جميع المغرب...، وكثر (بسببه) الموت، وضاعت من الخلائق ما لا يحصى عددها، حتى قيل مات من أهل القصر (الكبير) أربعة عشر ألف (14000) بالطاعون»⁹⁵. وشرد معظم أهل فاس في المدن الشمالية كالقصر الكبير والعرائش وطنجة وتطوان، وفي سائر القبائل والبلدان، فأضحوا يتكفّفون هنالك بعيالهم، ويطلبون القوات من أبواب الديار، بعدما باعوا دُورهم ورباعهم وأصولهم وجلبهم وكل ما يملكون، وأكلوا ذلك ولم ينفعهم⁹⁶. على حد تعبيره. واستمر الوباء في الامتداد بشكل ضعيف إلى السنتين التاليتين؛ فقد بلغ عدد وفياته بمدينة تطوان وطنجة في شهر أغسطس سنة 1743م ما بين 70 و 80 ضحية في اليوم، وضرب مدينة آسفي في شهر يونيو سنة 1744م، ووصل عدد وفياته بها 20 ضحية في اليوم⁹⁷.



وبعد ست سنوات من انحساره وخموده، عاد الطاعون للظهور من جديد بمدينة آسفي وأكادير خلال سنة 1160هـ/1747م⁹⁸، قبل أن يمتد في السنة التالية 1161هـ/1748م إلى سوس الأقصى⁹⁹، وإلى مركزين جديدين هما مراكش وتافيلالت، ويمتد في ربيع سنة 1162هـ/1749م إلى مدينتي سلا والرباط، حيث أطل مقامه بهما إلى بداية شهر أغسطس، مُحدثاً بهما أضراراً جسيمة، خاصة في مدينة سلا، التي ارتفعت بها الوفيات خلال بضعة أيام من شهر مارس إلى 60 ضحية في اليوم الواحد¹⁰⁰. وهو ما أثر بشكل سلبي في الحياة التجارية والحرفية بالمدينتين معاً، فمع ظهور الطاعون انهارت تماماً التجارة الخارجية بعد أن قامت سلطات جبل طارق وإسبانيا بقطع جميع المواصلات مع المغرب، فقد ورد في وثيقة صادرة من الرباط بتاريخ 11 يوليوز 1749م أن «الأمور التجارية في حالة يُرثى لها، بحيث لم نبع شيئاً من السلع التي لدينا...، وسبب ذلك راجع إلى الطاعون الذي تفشى هنا منذ شهر مارس الفارط، والذي أضّر كثيراً بالتجارة»¹⁰¹.

وشهد المغرب في السنة التالية 1163هـ/1750م موسماً فلاحياً جافاً، الأمر الذي استدعى إقامة صلوات الاستسقاء في كل ربوع البلاد، ومرة أخرى تقدّم الفقيه الصوفي حمدون الطاهري الجوطي لإمامة الناس في هذه الصلوات عدة مرات بفاس¹⁰²، ومع ذلك استمرت موجة القحط في الامتداد إلى أن عمّت المجاعة الناس، فلجأ الكثير منهم إلى أكل نبات أيرني¹⁰³، في حين اعتمد البعض في تغذيته على «اللوبياء» التي كان يأتي بها التجار الأوروبيون إلى المراسي المغربية¹⁰⁴.

وفي خضم هذه الفاقة الغذائية داهم الطاعون مختلف أنحاء البلاد، فسقط بسببه آلاف الضحايا حسبما أوردته المصادر المغربية، بحيث ذكر القادري وغيره أن عدد ضحايا هذا الطاعون بمدينة فاس وصل إلى ما يزيد على 300 ضحية في اليوم الواحد، وذلك خلال شهر رجب من سنة 1163هـ/يونيو 1750م¹⁰⁵. في حين أوردت مراسلات أجنبية أرقاماً متباينة عن عدد ضحاياه في صيف السنة ذاتها. إذ أفادت بعض الوثائق أن عدد الوفيات في فاس بلغ خلال أوائل يونيو 160 إلى 170 ضحية في اليوم، وأن العدد ارتفع في مدينتي فاس ومكناس في أوائل يوليوز إلى 300 و 400 ضحية في اليوم، وأن الوباء أحدث خسائر رهيبية في هاتين المدينتين خلال أواسط أغسطس، حيث بلغ الموت في كل منهما 1500 ضحية في اليوم¹⁰⁶. وهذا الرقم الأخير، وإن كان يبدو مبالغاً فيه، فإنه لا شك يعبر عن حدة الوباء وشدة فتكه بأهل



المدينتين المذكورتين في ظل واقع متأزم يفتقر إلى مرافق استشفائية قادرة على الحد من وطأة انتشاره.

وكان الأمير سيدي محمد بن عبد الله قد خرج وقتئذ من مراكش متوجهاً إلى فاس، وفي رفقته حوالي أربعة آلاف جندي، لإصلاح ذات بين الجيش ووالده السلطان مولاي عبد الله، فشق طريقه عبر جهات موبوءة بالشاوية والغرب، فلقى كثير من جنده حتفه بالطاعون بقصر بولعوان والمعمورة، ولما وصل الأمير إلى فاس والتقى بوالده، وأفلح في المهمة التي قدم من أجلها، ورأى أن الوباء لا يزيد إلا تفاقمًا وشدةً بفاس ومكناس والغرب، قرر التعجيل بالعودة إلى مدينة مراكش في أقرب مدة¹⁰⁷.

ومن مدينتي فاس ومكناس امتد هذا الوباء إلى المدن الشمالية، فعمَّ وزان والقصر الكبير والعرائش وتطوان وطنجة وأصيلة، كما ضرب مدينة الرباط، حيث كان ضحاياه بها من 4 إلى 8 أشخاص في اليوم. وبعدما أخذت وطأته تقل في سائر الجهات الموبوءة عند أواخر هذه السنة، عاود هجومه في السنة التالية (1164هـ/1751م)، وعمَّ جميع البلاد، إذ توغل جنوباً حتى إلى آسفي وعبدية وأزمور ومراكش، مخلفاً خسائر كبيرة في الأرواح، ففي بداية شهر مارس 1751م ارتفع عدد الموتى بمدينة مراكش إلى 300 و 400 ضحية في اليوم، ثم ارتفع الرقم في بداية شهر أبريل إلى 500 ضحية في اليوم، مما أرغم الأمير سيدي محمد على الخروج من المدينة مع حاشيته في اتجاه مكان أمين على بعد مرحلتين منها¹⁰⁸.

ومع حلول فصل الصيف من السنة نفسها (1751م) كفَّ هذا الوباء وانتهى أمره، ويظهر ذلك جلياً من إشارة قَدَمها ابن الحاج السلمي، يؤكد فيها انتهاءه بصفة كلية بقوله: «وفي شهر جمادى الثانية ورجب وشعبان هاج المرض الوبائي بحضرة فاس وجميع بلاد المغرب من جبل ووطاء، حتى كاد أن يفني الخلق، وافتتن الناس، وخلت بسببه ديار، وكثر الهرج، ولم يزل أمره يتفاقم إلى منتصف شعبان (يوليوز)، فكفَّ والحمد لله»¹⁰⁹. وقد نجم عن هذا الطاعون وكذا الأهوال التي رافقته وأعقبته، شعور بالخوف في الأوساط الاجتماعية، زادت من حدته أعمال النهب والسلب والقتل التي تفشت كثيراً خلال أواخر أيام «الفترة»، إذ «كان الخوف في الطريق، فمن أراد أن يمشي من القصر أو من وزان، يعطي الزطاطة»¹¹⁰ ليصل لفاس أو لغيره¹¹¹.

وقد شاع ذلك الخوف في وقت عجز فيه السلطان مولاي عبد الله عن تأديب المخالفين للنظام العام، وابتعد عن مباشرة زمام الأمور في البلاد، وانطوى على نفسه بداره في دار الديبغ



بفاس، بينما صعد فيه نجم بعض الزعامات المحلية في منطقة الغرب ممن تقوّت سلطتهم غاية القوة إلى أن صاروا بمثابة «شركاء» السلطان في المُلك، أمثال القائد عبد الله السليماني السفيناني، من قبيلة سفيان، والقائد الحبيب المالكي الحمادي، من أولاد حماد بقبيلة بني مالك. فمما يدل على عجز مولاي عبد الله عن ردع التجاوزات المتردفة وتنامي سلطة القائدين المذكورين في ذلك الوقت، أنه «كان إذا انتُهب أحدٌ في الطريق واشتكى عليه، يقول له: إشتكٍ على عبد الله السفيناني وعلى الحبيب المالكي، أنا غيرُ ثُلُث ثلاثة معهم في المملكة وفي الغرب، فإذا غَرَمَا لك ما ضاع فأنا أغرمُ ثُلثي»¹¹².

إنها شهادة صريحة من السلطان مولاي عبد الله تبرز مدى قصوره عن تحقيق الأمن الاجتماعي، وفقدانه التحكم في زمام الأمر بدولته، الأمر الذي عَجَّل باستقلال عدد من الحواضر واستفحال حوادث العنف المفرط في أواخر عهده. فبعد أن خمدت ناره ولم يبق له سوى مرسى تطوان حيث «كان يقبض منها العشور، استقل أهل فاس بأنفسهم، وكذلك أهل رباط الفتح فكانوا يأكلون مال المرسى، وعملوا أيت الأربعين»¹¹³، وأخذوا في اشتراء الخيل والعدة، وثاروا على السلطان، وصاروا يقيدون هذا أياماً ثم يقتلونه بالغدر، ويقيدون هذا ثانياً ويهجمون عليه، فكان هذا أمرهم، فقتلوا أقواماً منهم، وكان القائد عليهم في عام خمس وستين ومائة وألف (1165هـ/1752م) السيد أحمد الوليتي....، ثم قيدوا عليهم بالرباط السيد أحمد وزهرة فقتلوه، ثم اللوشي فقتلوه، ثم قتلوا صيدون، ثم قتلوا ابن جندار، ثم قتلوا القائد حجو مُرين»¹¹⁴.

علاوة على أعمال القتل المذكورة، تعج المصادر التاريخية بمعطيات مهمة عن اعتداءات قبائل الأطلس المتوسط وغيرها على القوافل والممتلكات في جهات مختلفة من البلاد عقب انحسار هذا الوباء، فقد نهب بنو مطير قافلة لأهل فاس، وسطت كروان على قافلة قدمت من مراكش وسلا، واعترض «البربر» الحُجَّاجَ ونهبوهم¹¹⁵، وتَجَبَّروا على السلطان مولاي عبد الله حتى صاروا «يخطفون له البقر والغنم»¹¹⁶، وأغاروا على أهل فاس ونهبوا لهم «سبع دُولات»¹¹⁷ من البقر وأزواجاً من الحرث»¹¹⁸.

ولم يسلم عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله هو الآخر من هذه الكوارث الهدامة، بحيث تعرض المغرب في عهده لمجاعة كبيرة أرهقت البلاد والعباد، ودامت ست سنوات كاملة، من سنة 1190 إلى سنة 1196هـ (1776-1782م)، أسهم في توفير ظروفها التهافت الكبير على تصدير الحبوب إلى أوروبا قبل أن توجه الطبيعة ضرباتها الموجعة بزم من بعيد. ويتجلى ذلك من



خلال ما كتبه القنصل الفرنسي لويس شينني متحدثاً عن غلاء الأسعار بالمغرب عام 1775م: «إن محصول القمح لم يكن وافراً في السنة الماضية، والبلاد لا تتوفر على مخزونات منه، بسبب النتائج الوخيمة الناجمة عن تصديره في السنوات الماضية، وترى ثمنه اليوم يزيد على ما كان عليه بثلاث مرات»¹¹⁹.

ومع ضعف المحاصيل الزراعية واشتداد موجة الغلاء، قرر السلطان حظر تصدير الحبوب إلى الخارج، بعدما أضى الناس يعانون نقصاً حاداً في الغذاء. واشتد الأمر خلال سنة 1190هـ/1776م، عندما قلّت الحبوب في الأسواق، وعلت أسعارها بصورة مذهلة، واستحكمت الأزمة الغذائية إلى أن مات عدد كبير من الناس جوعاً بمراكش، واضطر كثير من الآباء إلى التخلي عن أولادهم للمحسنين، لعجزهم عن إعالتهم وسد جوعهم¹²⁰.

وقد انفرجت الأحوال نسبياً إبان سنتي 1191-1192هـ/1777-1778م بفضل سقوط أمطار كافية، ضمنت إلى حد ما الموسميين الفلاحين، لكن الأوضاع لم تكد تتحسن حتى قحطت البلاد قحطاً شديداً في سنة 1193هـ/1779م، ودمّر جفاف رهيب المحاصيل، وانعكست آثاره في نضوب المراعي، وهلاك الدواب، وخصوصاً الأبقار، التي نفقت بالآلاف، حتى كادت أن تنقطع بسبب الجذب. وإضافة إلى ذلك، تعرض المغرب خلالها لخطر الجراد، الذي غطّت أسرابه البادية، تاركة وراءها الأشجار عارية والحقول جرداء، فانهارت المحاصيل الزراعية، وارتفعت أسعار القمح ارتفاعاً كبيراً في معظم الجهات المغربية¹²¹. والأمر نفسه بالنسبة إلى سنة 1194هـ/1780م، عندما استمر الجفاف في الامتداد، وتقلصت مساحة الأراضي المحروثة لقلة الحبوب، ف«كان الناس يجلسون مع الخماميس (جمع خَمَّاس) الذين يحرقون في تامسنا (الشاوية) حتى يزرعون الزرع في الأرض لعدم الأمن فيهم»¹²². فضغفت المحاصيل، وتفشت المجاعة بحدة، واشتعلت أسعار المواد الغذائية، مما دفع بعدد كبير من يهود فاس إلى اعتناق الإسلام بعد أن هلك الكثير منهم جوعاً، في حين تهافت الجياع بالغرب والشاوية على نهب بواكير الغلات وهي ما تزال في الحقول، وقبل أوان نضجها، وتحولت الأراضي هنالك إلى ميدان صراع من أجل البقاء بين الناهبين الجياع وبين الملاكين، الذين أمسوا يدافعون عن بساتينهم وحقولهم بحد السلاح، ويسارعون إلى جني أو حصد ما أمكنهم إنقاذه من النهب، وذلك قبل أوان النضج¹²³.

وكانت السنة التالية 1195هـ/1781م سنة يبس وقحولة، إذ شحّت فيها التساقطات المطرية في مجموع البلاد، وعلت الأسعار، «فبلغ القمح مائة مثقال للوسق الواحد، والناس في



أشد ما يكون من ضيق الحال والدهش من ذلك»¹²⁴. وانعدمت المواد الغذائية في الأسواق، بحيث «انقطع الزرع الصويوني من الرحبة، وكذلك الخرنوب والزبيب والتين والشعير والذرة والبشنة»¹²⁵.

ومثل عادة المغاربة أيام الجفاف، نُظمت صلوات الاستسقاء في هذه السنة بكل أنحاء المملكة طلباً للغيث، فقد أُقيمت في الرباط في جو من الرهبة والخوف «وأخذ الناس في البكاء والعويل وزيارة الصالحين، ويتشفعون لله بالمصاحف»¹²⁶، وخرج اليهود بجموعهم يطلبون الله هم كذلك في إنزال الغيث، وأعيدت الصلاة المذكورة بالمدينة ثلاث مرات إلى أن أمطرت السماء، و«رحم الله عباده... بعد أن وصل الزرع خمسين أوقية للمُد، وخرج أهل الرباط ليلاً بالفضة والذهب واشتروا من النصارى وسق ثلاثة سفن من الزرع الصويوني، وعَبَرُوهُ على ضوء الشمع في الليل، وأدخلوه إلى ديارهم، وهم الأغنياء منهم»¹²⁷، حسب شهادة الضعيف الرباطي ومعاينته الشخصية. وأمام ندرة الغذاء وارتفاع الأسعار اضطر البعض إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير والآدمي¹²⁸. ولم تَخَفْ شدة هذه المجاعة المدمرة إلا في صيف عام 1196هـ/1782م، حيث «جاءت الصابة وكثر الزرع»¹²⁹، ثم مع حلول سنة 1197هـ/1783م، حيث «مطر المغرب، وحرث الناس، وبلغ الزرع، ورخصت الأسعار»¹³⁰، و«صلحت أحوال الجماعة...، وازدهت الدنيا، ودَرَّتْ الجبايات»¹³¹.

وانعكست آثار هذه الآفة الطبيعية على أمن السكان واستقرارهم، فبِغَلَاء الأسعار واستفحال خطر المجاعة «عظم الهرج وكاد الناس يأكل بعضهم بعضاً»¹³². ففي بلاد الشاوية مثلاً صارت القبائل تهاجم القوافل التجارية وتسطو على ممتلكات المسافرين، الأمر الذي أرغم الكثير من قاصدي المناطق الجنوبية على استعمال الطريق البحري رغبة في النجاة من قُطَاع الطرق. وقد احتفظ الضعيف الرباطي بإشارة قِيَمَةٍ ومعبرة بصورة جليّة عن ظاهرة اللصوصية في هذه المنطقة، حيث ذكر أنه «كان لا يقدر أحدٌ أن يذهب لمراكش على بلاد تامسنا، وكل من جاز عليهم أكلوه ونهبوه، حتى أن السلطان بَرَّح أن كل من جاز على الشاوية فلا يلوم إلا نفسه، ومن أراد مراكش أو سوس أو أزموور أو الصويرة فليركب في البحر، ويحمل معه سلعته وينزل بالمهدومة أو بطيط»¹³³. وكذلك الشأن بالنسبة إلى زعير الذين أضحوا يعترضون سبيل كل من عبر بلادهم، ووصل بهم التجاسر على اعتراض المارة إلى أن «أكلوا الحجاج، وأخذوا لهم مالا كثيراً من أهل مراكش وسوس، ونهبوا لهم سلعا كثيرة من أنواع الديباج»¹³⁴. وإضافة إلى ما سلف، فإن هذه الكارثة أودت بعدد كبير من السكان، إذ يشير أبو



القاسم الزباني، والناصر من بعده، أن معظم الناس ماتوا من الجوع¹³⁵، كما أنه بسبب سوء التغذية تفشى وباء قاتل بين الناس، فمات بسببه الآلاف منهم في الرباط وسلا ومكناس وفاس¹³⁶. واحتفظت مراسلات القنصل الفرنسي شيني بمعطيات هامة عن المخلفات البشرية لهذه المجاعة، تشير إلى أن نسبة الوفيات بالجوع بلغت أكثر من سدس مجموع السكان¹³⁷. وهي نسبة أقرب إلى الواقع، لكون شيني كان شاهد عيان على المجاعة، وعلى الخراب والتدمير اللذين أحدثتهما طيلة الست سنوات المذكورة.

وللتخفيف من قساوة هذه المسغبة اتخذ السلطان سيدي محمد بن عبد الله تدابير اجتماعية مهمة لمصلحة الرعية، كترتيب الخبز في كل مدينة ليفرق على الضعفاء والمساكين في كل حومة، وتوزيع الأموال على القبائل المتضررة، وإسقاط الضرائب والمكوس والكُلف عن جميع القبائل، وتقديم الأموال للتجار الأوروبيين لجلب الحبوب من أوروبا وبيعها بأثمان منخفضة وفقاً للأمة¹³⁸، مع إعفائهم من واجبات الرسوم الجمركية¹³⁹، ونقل مخزون بعض المناطق من الحبوب إلى جهات أخرى أكثر تضرراً وجعله في متناول الناس¹⁴⁰.

مجمال القول، إن تأجج الصراعات السياسية والعسكرية، وتعاقب التقلبات المناخية، كانا كفيلا بإحداث فجوة عميقة داخل النسيج الاجتماعي المغربي زمن الفترة المدروسة؛ ذلك النسيج الاجتماعي المتأزم الذي دمرت فيه الكوارث الطبيعية أبسط معاني الكرامة الإنسانية. وهذا ما انعكس بوضوح على نفسية المغاربة وطريقة تفكيرهم، وعلى مواقفهم الذهنية من هذه الكوارث، التي تعد بحق ثابتاً أساسياً من ثوابت الأزمات في مغرب العصر الحديث.

الهوامش:

1. محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، نشر وتوزيع مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة الأولى، 1982، ج 2، ص 194.
2. محمد العمراني، المغرب زمن العلويين الأوائل، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، ص 17-45.
3. الحنّا شون: الوسطاء والعملاء التجاريون.
4. البجماط: لفظة عامية مغربية يقصد بها نوع من الحلويات التقليدية المعروفة بـ«الفَقَّاص».
5. الصابورة: ما يوضع في بطن السفينة من الثقل لئلا تميل على أحد جوانبها.
6. محمد بن العياشي، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا ومولانا زيدان، دراسة وتحقيق أحمد قدور، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، ص 105.
7. تالكوهت: نبات شوكي يُعرف أيضاً باسم «الكربينة/القرنية». يُسلخ شوكه ويؤكل طازجاً أو مطبوخاً.



- ⁸. أيرني: نبات يرتبط في الذاكرة المغربية بطعام الجوع، كان الضعفاء والمُعْدِمون يضطرون إلى أكله أيام المجاعات بعد تجفيفه وطبخه لمرارة مذاقه.
- ⁹. تقييد لأحد حفدة الشيخ أبي محمد صالح الماجري مسجل بإحدى كنانيش الفقيه الكانوني. انظر: أحمد بوشرب، «أزمة ضمير المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر»، في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص بشعبة التاريخ، دراسات في تاريخ المغرب، 1985، ص.77.
- ¹⁰. عبد الله بن عمر العياشي، الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، رقم 1433د، ص.251.
- ¹¹. محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي، ج2، ص.129، 134: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص.155، 157؛ محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، دراسة وتحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، الطبعة الأولى، 1986، ص.31-32؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1956، ج7، ص.104؛ عبد الرحمن ابن زيدان العلوي المكناسي، إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع «إديال» الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1990، ج3، ص.135.
- ¹². عبد الله بن عمر العياشي، الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، رقم 1433د، ص.28، 29.
- ¹³. المصدر نفسه، ص.251.
- ¹⁴. المصدر نفسه، ص.257.
- ¹⁵. وصف صاحب «الإحياء والانتعاش» عام 1071هـ/1661م بـ«عام القحط الشديد، والجوع الطويل المديد، الذي تساوى شتاؤه وصيفه، واعتدل في الحر نهاره وليله، وظهر على رؤوس الجبال والآكام، غيرة تشبه الدخان والغمام، وعمدت الأمطار في جميع بوادي المغرب والأمصار، وفزع العباد إلى الاستسقاء وطلب الغيث والاستغفار، فلم يجابوا فيما طلبوا، بل زاد اليبس في العيون والأنهار، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر الجوع في أواخره، وقد ارتفع القحط قليلاً، وجرّد سيفه على أهل بلاد المغرب، فلم يسلم منه سهله ولا وعره، بل عم جميع أطرافه خطبه، وأخذ يكظم أهله، وضاق عليهم رحيه». المصدر نفسه، ص.28.
- ¹⁶. لا تسترب: لا تشك. من استراب، يستريب، إذا شك وتردّد في الأمر.
- ¹⁷. الحَيْسُ: هو الطعام المتخذ من التمر والأقيط (جبن اللبن المستخرج زبد) والسمن. وحاسه يحبسُه حَيْساً: أي خلطه. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم (أولم على بعض نسائه بحَيْس). وقد يجعل عوض الأقط الدقيق والفيت. وحَيْسَه: خلطه واتخذ. انظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مادة «حيس»، دار صادر، بيروت، (د.ت.ط)، ج6، ص.61.
- ¹⁸. عبد الله بن عمر العياشي، الإحياء والانتعاش....، م.س، ص.28.



- ¹⁹. المصدر نفسه، ص ص 257-258.
- ²⁰. أحمد بن الحاج السلي المرداسي الفاسي، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 12184، ج 7، ص 239.
- ²¹. محمد العمراني، المغرب زمن العلويين الأوائل، ص ص 24-25؛ «كتب المناقب وترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية»، في مجلة أمل، العدد 35، سنة 2009، ص 54.
- ²². محمد بن العياشي، زهر البستان، ص 103؛ عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد مولاي عبد الله بن إسماعيل، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص ص 121-122.
- ²³. محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي....، م.س، ج 2، ص 149.
- ²⁴. عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم....، م.س، ص 137.
- ²⁵. جيرمان موبت، تاريخ مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل، ترجمة حسن أميلي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، دار أبي رقرق، الرباط، الطبعة الأولى، 2015، ص 63.
- ²⁶. محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي....، م.س، ص 428.
- ²⁷. محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر....، م.س، ص 166.
- ²⁸. محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 58؛ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ج 1، ص 329.
- ²⁹. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا....، م.س، ج 7، ص 97.
- ³⁰. أبو القاسم الزباني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص 185.
- ³¹. محمد المشرفي، الحلل البهية....، م.س، ج 1، ص 322.
- ³². أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنتخب....، م.س، ج 7، ص 403.
- ³³. أبو القاسم الزباني، البستان الظريف....، م.س، ص 189.
- ³⁴. أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، تقديم وتحقيق عبيد محمد غسان، رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، طبعة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992، ص 744، أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنتخب، ج 6، ص 106؛ محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 1994، ج 1، ص 156؛ محمد المشرفي، الحلل البهية، ج 1، ص 324؛ عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر مولاي إسماعيل بن



- الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993، ص.406.
- ³⁵ . أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج 7، ص.103.
- ³⁶ . أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنخب...، م.س، ج 7، ص.152.
- ³⁷ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 3، ص.261.
- ³⁸ . أبو علي الروسي هو عامل السلطان مولاي إسماعيل على مدينة فاس، قتله أهل فاس سنة 1139هـ/1727م، ومثلوا بجثته في الأزقة، وقتلوا من أصحابه نحو أربعة وعشرين رجلاً. انظر: عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم، ص.204؛ محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي، ج 3، ص.291؛ أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب، ص.743؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص.103.
- ³⁹ . أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب، ص.743؛ البستان الظريف، ص.186؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج 7، ص.98؛ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنخب، ج 8، ص.5-6؛ محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرم، ج 1، ص.155.
- ⁴⁰ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف...، م.س، ص.186.
- ⁴¹ . محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي...، م.س، ص.431.
- ⁴² . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 2، ص.203.
- ⁴³ . المصدر نفسه، ج 2، ص.232.
- ⁴⁴ . عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم...، م.س، ص.165.
- ⁴⁵ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 2، ص.250-251.
- ⁴⁶ . جيرمان مويط، تاريخ مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل...، م.س، ص.129.
- ⁴⁷ . راجع تراجم عام 1090هـ/1679م في المصادر التاريخية المغربية.
- ⁴⁸ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.63.
- ⁴⁹ . أبو القاسم الزباني، ألفية السلوك في وفيات الملوك، مخطوط مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رقم 8291، لوحة 79 (ب).
- ⁵⁰ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 2، ص.292-293.
- ⁵¹ . أبو القاسم الزباني، ألفية السلوك في وفيات الملوك...، م.س، لوحة 79 (ب).
- ⁵² . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 2، ص.311.
- ⁵³ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص.66؛ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنخب، ج 6، ص.174.
- ⁵⁴ . أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنخب...، م.س، ج 7، ص.338-339.
- ⁵⁵ . عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم، ص.200؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص.97.



- ⁵⁶ محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص.36.
- ⁵⁷ محمد الصغير الإفرائي، روضة التعريف....، م.س، ص.42.
- ⁵⁸ محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي....، م.س، ص.435.
- ⁵⁹ محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي....، م.س، ج 3، ص.253.
- ⁶⁰ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب....، م.س، ج 8، ص 6-7.
- ⁶¹ عبد الله بن إبراهيم التاسفاي، رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد في هذه الأجيال بإذن الواحد، تحقيق علي صديقي أزايكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص.239.
- ⁶² المصدر نفسه، ص.242.
- ⁶³ المصدر نفسه، ص.227.
- ⁶⁴ محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب....، م.س، ص.40. معتمداً في ذلك على كتاب: جوزيف كولفان، موقع مازكان تحت الحكم البرتغالي (1502-1769)، باريس، 1917، ص.97. (بالفرنسية).
- ⁶⁵ عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم، ص.201: أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب، ج 8، ص.7؛ عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص.78.
- ⁶⁶ محمد العمراني، «الدور الاجتماعي للزاوية الوزانية»، في مجلة مكناسة (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس)، العدد 17، سنة 2007، ص 113-131.
- ⁶⁷ محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي....، م.س، ج 3، ص 292-293.
- ⁶⁸ عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم....، م.س، ص.219، 224.
- ⁶⁹ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.106، 109.
- ⁷⁰ محمد المشرفي، الحلل الهية....، م.س، ج 2، ص.5.
- ⁷¹ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.122.
- ⁷² للتوسع أكثر عن هذا الفقيه الصوفي يمكن الرجوع إلى دراسة: محمد العمراني، «حمدون الطاهري الجوطي الفاسي: محاولة لإعادة الاعتبار»، في مجلة عوارف، العدد الأول، خريف 2006، ص 149-176.
- ⁷³ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب....، م.س، ج 8، ص.304.
- ⁷⁴ محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي....، م.س، ج 3، ص.400.
- ⁷⁵ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب....، م.س، ج 8، ص.305.
- ⁷⁶ محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي....، م.س، ج 3، ص.399.
- ⁷⁷ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.121.
- ⁷⁸ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب....، م.س، ج 8، ص.317.
- ⁷⁹ عبد الكريم بن موسى الريفى، زهر الأكم....، م.س، ص.249.



- ⁸⁰ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 4، ص 17.
- ⁸¹ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 126.
- ⁸² . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 47.
- ⁸³ . عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، ص 190؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 125.
- ⁸⁴ . أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج 7، ص 145.
- ⁸⁵ . أبو القاسم الزباني، الترجمان المعرب، ص 761؛ البستان الظريف، ص 272.
- ⁸⁶ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف...، ص 318.
- ⁸⁷ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 3، ص 404.
- ⁸⁸ . المصدر نفسه، ج 4، ص 20.
- ⁸⁹ . أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب...، م.س، ج 8، ص 319-321.
- ⁹⁰ . عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، م.س، ص 251.
- ⁹¹ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي...، م.س، ج 4، ص 20.
- ⁹² . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف...، م.س، ص 271.
- ⁹³ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي، ج 3، ص 404، 405؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 126.
- ⁹⁴ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 140؛ محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات، ص 56.
- ⁹⁵ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 141.
- ⁹⁶ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 140-141؛ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المننخب، ج 8، ص 407.
- ⁹⁷ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 56-57.
- ⁹⁸ . المرجع نفسه، ص 57.
- ⁹⁹ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة...، م.س، ص 154.
- ¹⁰⁰ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 57-58.
- ¹⁰¹ . المرجع نفسه، ص 63.
- ¹⁰² . محمد العمراني، «حمدون الطاهري الجوطي الفاسي: محاولة لإعادة الاعتبار»، م.س، ص 158.
- ¹⁰³ . أيرني: نبات يرتبط في الذاكرة المغربية بطعام الجوع، كان الضعفاء من الناس يضطرون إلى أكله أيام المجاعات بعد تجفيفه وطبخه لمرارة مذاقه.
- ¹⁰⁴ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 155.



- ¹⁰⁵ . محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي، ج 4، ص 82؛ التقاط الدرر، ص 418؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 155؛ محمد المشرفي، الحلل الهية، ج 2، ص 13.
- ¹⁰⁶ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 59.
- ¹⁰⁷ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات، ص 58-59؛ أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنتخب، ج 9، ص 143.
- ¹⁰⁸ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 59-60.
- ¹⁰⁹ . أحمد ابن الحاج السلي، الدر المنتخب...، م.س، ج 9، ص 175.
- ¹¹⁰ . الزطاطة مفردة الزطاط. كلمة مغربية عامية تدل على ذلك الشخص الذي يتكفل مقابل أجر معلوم بتأمين الطريق لفرد أو لمجموعة أفراد، وحمايته من اللصوص وقطاع الطرق حتى يصل بأمان إلى مقصده. فالزطاطة إذن، حسب التداول العامي، «مؤسسة» ترتبط بتأمين الطريق وحمايتها من الخطر لقاء ثمن متفق عليه يدفعه الشخص المسافر المحمي للزطاط الحامي. للتوسع في هذا الموضوع انظر: عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.
- ¹¹¹ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 161.
- ¹¹² . المصدر نفسه، ص 159.
- ¹¹³ . آيت الأربيعين: عبارة عن لف من الرجال يُكوّنون عصابة مستقلة تصبح صاحبة الأمر والنهي في المنطقة.
- ¹¹⁴ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 156.
- ¹¹⁵ . المصدر نفسه، ص 158.
- ¹¹⁶ . المصدر نفسه، ص 161.
- ¹¹⁷ . الدُّوْلَة (بضم الدال المشددة): تعبير عامي مغربي عن قطع الماشية. عندما نقول: «دُوْلَة من البقر» معناه: قطع من البقر. والأمر نفسه بالنسبة إلى الإبل والغنم والمعز.
- ¹¹⁸ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 161.
- ¹¹⁹ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 70.
- ¹²⁰ . المرجع نفسه، ص 71.
- ¹²¹ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات، ص 73؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 181، 182؛ عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 3، ص 175.
- ¹²² . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص 182.
- ¹²³ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص 75.
- ¹²⁴ . محمد بن علي الزبادي المنالي، سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزواية، تقديم وتحقيق عبد الحي اليملاحي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطاون، الطبعة الأولى، 2012، ص 213.



- ¹²⁵ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.183.
- ¹²⁶ . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹²⁷ . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹²⁸ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف، ص.414؛ الترجمان المغربي، ص.807، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج.8، ص.49؛ عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج.3، ص.174.
- ¹²⁹ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.183.
- ¹³⁰ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف...، م.س، ص.416.
- ¹³¹ . أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، م.س، ج.8، ص.49.
- ¹³² . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.182.
- ¹³³ . المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹³⁴ . المصدر نفسه، ص.187.
- ¹³⁵ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف، ص.414؛ الناصري، الاستقصا، ج.8، ص.49.
- ¹³⁶ . محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات...، م.س، ص.75.
- ¹³⁷ . المرجع نفسه، ص.74، 76، 77، 78.
- ¹³⁸ . أبو القاسم الزباني، البستان الظريف، ص.414؛ الترجمان المغربي، ص.807؛ ألفية السلوك، لوحة 66(أ)؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص.183؛ محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرمم، ج.1، ص.155؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج.8، ص.49؛ عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج.3، ص.174، 226، 266.
- ¹³⁹ . يظهر هذا من رسالة وجهها السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي إلى نائب القنصل الهولندي ويسطير بلونط، بتاريخ 5 رمضان 1193هـ/16 سبتمبر 1779م جاء فيها: «...وأمرنا جميع قونصوات الأجناس الذين بإيالتنا أن يجلبوا الزرع والإدام إلى بلادنا من حيث ما ظهر لهم، ولا يلزمهم عليه لازم ولا واجب المخطاف ولا غير ذلك مما هو معلوم من الكلف». الأرشيف الوطني بلاهاي. سلسلة 1.01.04، الولايات العامة 1796-1550، رقم 6982؛ وسلسلة 1.02.19، قنصلية طنجة 1658-1810، رقم 32.
- ¹⁴⁰ . محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، م.س، ص.182.